تطور الفكر الديني في حضارة بلاد الرافدين القديمة

Religion Ideology Development in the Old Mesopotamian Civilization

أ.د. نائل حنون

جامعة القادسية

كلية التربية / قسم التاريخ

Asst. Prof. Dr. Na`al Hanoon
University of Al-Qadesiya
College of Education
Department of History



من البحوث المشاركة في

مؤتمر العميد العلمي العالمي الاول

المنعقد تحت شعار

نلتقي في رحاب العميد لنرتقي

للمدة من ٢٥–٢٦ تشرين الاول ٢٠١٣م

برعاية العتبة العباسية المقدسة

A research paper taken from

Al-Ameed Journal First Global Academic Conference under

the Auspices of General Secretariat

of Holy Al-Abbas Shrine

held as of 25 to 26 -10- 2013

Under the slogan

Under the Shade of Al-Ameed

We Do Meet to Augment



ملخص البحث

يتناول هذا البحث الشواهد الدالة على جذور التوحيد في الحضارة العراقية القديمة، فقارئ هذه الحضارة يلحظ نضجها وتطورها، وانها لا يمكن ان تكون بعيدة عن الرسالات السماوية لاسيما وان ثمة نصوصا مهمة تدل على تلك الرسالات، بيد أن تلك النصوص لم تحظ بالدراسة الكافية.

ومهمة هذا البحث تقديم قراءة معرفية عن تطور النصوص التي تدل على الفكر الموحد في العراق القديم، اذا ينطلق البحث من حقائق و يستدل بالدلائل ليبرز أسئلة آن الأوان إلى أن تبرز، ثم ينشد أجوبة قد نصل إليها، أو يجعل منها منشدا يرسم منهج جديد لبحوث قادمة.

عقيدة الفكر ، فكرة الإيمان بالله الواحد الأحد ففي ظل هذه العقيدة يتواصل الإنسان، و أعماله في الأرض وتكوين الحضارة، إذ لم تبلغ عقيدة التوحيد كمالها عمقها المطلق إلا في الإسلام إذ لم تشبها شائبة في الإسلام ولم يعبر عنها بكلام مثل كلام أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال: ((**الحمد لله الدال على وجوده بخلقه و بمحدث خلقه**)).



ABSTRACT

The study focuses on the evident proves certifying the root of the unity of Allah in the Old Iraqi Civilization, a reader to such a civilization could observe its maturity and development, it is impossible for it to be far from the sacred messages as there are scriptures proving such messages and not being under study as much as they deserve.

The major target of the paper is to take hold of the texts that certify the ideology of Allah unity in the Old Iraq.

It depends on facts and evidences that are too necessary to be tackled in publicity and assumes answers or suggests some further studies in this concern. Furthermore, under the doctrine of Allah unity man proceeds on the earth and erects a civilization, thus the doctrine of oneness never heaves into light but in Islam as the Commander of the Believers declares: "raise be to Him, as He prove His existence through His creature and creation".







... المقدمة ...

ينطلق البحث من حقائق ويستدل بالدلائل ليبرز أسئلة آن لها أن تبرز، ثم ينشد أجوبة قد نصل إليها أو يجعل منها منشداً يُرسم منه منهجٌ جديد لبحوث قادمة.

أعظم حقائق الفكر عقيدة التوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد. وفي ظل هذه العقيدة العظمى تواصل تعلم الإنسان منذ خلقه فتعميره في الأرض وإنشائه الحضارة الأولى وتواصل تطويره للحضارة وإنجازاتها الهائلة بنعمة من خالقه تعالى إذ فتح له أبواب المعرفة لكي لا يتوقف ركب الحضارة، وسبحانه إذ يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

ولا يبلغ الإنسان حد معرفته إلا عند سر خلقه المتمثل بالروح ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[2].

ولم تبلغ عقيدة التوحيد كمالها وعمقها وحقيقتها المطلقة إلا في الإسلام إذ لم تشبها شائبة وصَدُقَ الإيمان بها بحيث أن وليّنا أمير المؤمنين عليه السلام يبتدئ وصيته بها إذ يقول: ((**أما وصيتي: فالله لا تُشرِكوا بهِ شيئاً، ومحمدٌ صلى الله عليه وآله فَلا تُضَيِّعوا سُنّتَه، أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين**
أمريءٍ منكُم مَجهُودَه، وخَفف عن الجهلةِ، ربٌّ رحيمٌ، ودينٌ قويمٌ، وإمام عليمٌ))[3].

لم يسبق هذا النقاءَ نقاءٌ. وأنى للبشر قبل الإسلام بآلاف السنين أن يصلوا إلى هذا الإطلاق في اعتناق العقيدة حتى يعبر عنها بكلام أمير المؤمنين عليه السلام: ((**الحمدُ**



لله الدالِّ على وجوده بخَلقهِ، وبمُحدَثِ خَلقِهِ على أزليتِهِ، وباشتباهِهِم على أنْ لا شَبَهَ لهُ، لا تستلِمُهُ المشاعِرُ، ولا تحجبُهُ السواتِرُ، لافتراقِ الصانعِ والمصنوعِ، والحادِّ والمحدود، والربِّ والمربوبِ، الأحَدِ لا بتأويلِ عددٍ، والخالقِ لا بمعنى حركَةٍ ونَصَبٍ، والسَّميعِ لا بأداةٍ، والبصيرِ لا بتفريقِ آلةٍ، والشاهدِ لا بِمُماسَّةٍ، والبائِنِ لا بتراخي مسافةٍ، والظاهرِ لا برؤيةٍ، والباطن لا بلطافةٍ))(٤).

والسؤال هنا إلى أين وصل الأقدمون في عبادة الله وفي الإيمان بوحدانيته؟ والمقصود بالأقدمين هنا سكان العراق القديم، بناة تلك الحضارة المبدعة، الزاخرة بإنجازاتها الرائدة، الموثقة بمدوناتها التي زاد ما اكتشف منها حتى الآن على نصف مليون في شتى ضروب المعرفة وعلى رأسها العقائد والفكر الديني، وقد امتد زمن تدوين هذه النصوص ليصل إلى ثلاثة آلاف عام (من ٣٠٠٠ ق.م إلى نهاية القرن الأول الميلادي).

في عقيدتنا أنها قرون تواتر فيها الرسلُ يبشرون وينذرون ويدعون إلى عبادة اللهِ والهدى والحق. وكان لكل أمةٍ رسولٌ يقضي بينهم بالقسطِ ويكلمهم بلسانهم وبطاقة عقولهم، فيقول جَلَّ مَن قال في محكم كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٥).

الرُسلُ رحمةُ الباري بعباده يأتونهم بالبينات ويهدونهم إلى سوي السبل، وحين يأخذهم الضلالُ يأتونهم بوحي من الله سبحانه وتعالى فيقوّمون مسارهم ويصححون اعتقادهم. ونعرف مَن نعرف من الرسلِ، وهناك منهم مَن يقصر علمنا عن معرفتهم والله أعلم بمن أوحى إليه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٦).

ومن أدلّ الدلائل على الرسالات السّماوية أنّ البشر عرفوا، منذ أقدم أيامهم، أنّهم خليقةُ خالقٍ تفوق قدرتُهُ إدراكَهم، وأنهم روحٌ وجسدٌ والروحُ سرٌّ مغلق لا يطاله فهمهم. واعتقدوا، كما هو واضح في نصوص حضارة بلاد الرافدين القديمة، أن الربَّ خالدٌ لا يموت، وأنهم إلى الموت سائرون من غير أن يكون في مقدورهم معرفة يوم موتهم. وفي الموت تنفصل الروح عن الجسد لتذهب إلى عالمها فتخلد فيه، في حين يبلى الجسد في مدفنه. ولكن هل خلصت عندهم عقيدة التوحيد وبلغت ذاك النقاء والكمال والإخلاص الذي بلغ مبلغَهُ في الإسلام؟ هل دعاهم الرُسُلُ إلى التوحيدِ فقصرت عقولهم عن إدراكه؟ أو أن شفقة الخالق القدير على خلقه درَّجت هذه العقيدة للبشرية منذ طفولتها، في عصور الحضارة الأولى، حتى نضوجها في الإسلامِ الحنيف؟

فالتوحيد هو العقيدة الأعظم والأخطر في فكر البشر وحضارتهم. هو الانتقال الواسع الهائل من عبادة قوى الطبيعة المحيطة بالإنسان في عصوره القديمة، والمهددة مباشرة لوجوده والمرئية من قبله، إلى عبادة خالق هذه القوى ومحركها الذي لا يرى ولا يلمس. ولو شاء سبحانه وتعالى لجعل البشر في أي زمان يؤمنون بما يريد لهم أن يؤمنوا به، لكنه جلّت قُدرتُهُ يضع الأشياءَ في مقاديرها والبشر في امتحان عقولهم. أو لم يكن إيمانُ سيدِنا إبراهيم عليه السلام تدرجاً؟ أو تكون هي قصة تدرج البشرية كلها في التوحيد، أو تدرج حضارة بلاد الرافدين في التوحيد طوال تاريخها البالغ ثلاثة آلاف عام، وهي الحضارة التي عاش سيدُنا إبراهيم عليه السلام في كنفها وعلى أرضها؟

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ

* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾[٧].

من الحقائق العظمى إلى حقيقة علمية وواقع معاش الآن ينتقل البحث من الحقائق العظمى إلى حقيقة علمية وواقع معاش. الحقيقة العلمية عن حضارة بلاد الرافدين القديمة هي أنها غطت أرض العراق وما يحيطها من الدول المجاورة وأن منبع الإبداع الفكري فيها هو الجنوب، وتحديداً ما نعرفه اليوم باسم الفرات الأوسط، وما يسميه علماء الآثار قلب موطن المدن، وفيه قامت مدن الإنجاز الحضاري الكبرى الأولى: سپار (أبو حبه) شمالاً، نزولاً إلى بابل، كيش نِبُّر (نفر)، الوركاء، شروپاك (تل فاره) وأور. ومن المعروف لدى علماء الآثار والمسماريات أن الإبداع الثقافي حتى في بلاد آشور كان يستمد من هذه المنطقة.

الواقع المعاش في هذه المنطقة يتمثل في هذه العتبات المقَدّسة والأضرحة الشريفة ومقامات الرسل والأولياء الصالحين التي لا توجد بكثافة مثلما توجد هنا. وهذه ليست مصادفة تاريخية وإنما اتساق حضاري ديني تمتد جذوره في أعماق التاريخ تأخرنا كثيراً في استجلائه.

وليس هذا القول استنتاجاً بني على عاطفة أو مشاعر معينة بل يسنده أمر ثالث يجب أن نورده ونقف عنده طويلاً لأنه يكمل إطار ما نبحث عنه اليوم. ذلك أن هذه المنطقة نفسها كانت، في عصور الحضارة القديمة، موطناً لوقائع دينية كبرى لها دلالاتها الجسيمة أو ذات صلة بها، وقد آن الأوان لنربط فيما بين هذه الوقائع من جهة، وفيما بينها وبين المنطقة من جهة أخرى. ومن هذه الوقائع –تحديداً– مواضيع للنصوص المسمارية القديمة التي يوردها هذا البحث.

لقد تأخر استقراؤنا لهذه النصوص طويلاً، ولعله جزءاً من تأخرنا الشامل في دراسة حضارتنا القديمة، أو اتباعنا لمناهج علماء غربيين وفي أحيان كثيرة حتى بلا فهم لهذه المناهج. وهكذا وجدنا مَن يتحدث عن شعائر لم تعرفها حضارة بلاد الرافدين القديمة وإنما ألصقت بها من حضارات أخرى مثل الحضارة الإغريقية، ومن قبيل ذلك الزواج المقدس (البغاء المقدس) وغيرها ممّا نسب تجنّياً إلى حضارة عُرفت بقوانينها وشرائعها وقيمها المحافظة.

لقد تركزت مناهج دراسة حضارة بلاد الرافدين القديمة حتى اليوم بالدرجة الأولى على وقائع الحياة اليومية من أعمال ملوك وحروب واقتصاد. وحتى في النصوص الدينية والأدبية لم تتجاوز معظم الدراسات ترجمتها ومعانيها المباشرة. ولقد ابتدأ منهج مخالف طرحه عالم المسماريات الفرنسي جان بوتيرو يعتمد على ركيزتين هما استيعاب (النظام الديني) واستعمال (المدونات وسيلة للاستدلال)[٨].

لكن دراسات بوتيرو ظلت مقتصرة على الأدعية والابتهالات أو على دراسة سطحية لبعض النصوص الأخرى. غير أن هذا المنهج أوصل جان بوتيرو إلى القول يوماً: «هذا ما استوقفني بالقرب من قنوات بابل وأنا مسلم، من دون هوى بل بإحساس المؤرخ فقط، بأن هذه المنطقة هي وطن الآباء الأوائل»[٩].

وقد نجح جان بوتيرو في تحديد عامل رئيسي وراء إخفاق الدراسات الحديثة في استيعاب جوهر الفكر الديني في الحضارة القديمة، وهو العامل الذي تبلور من اتجاه الباحثين إلى تقسيم هذا الفكر ما بين سومري وأكدي وبين بابلي وآشوري، مما نجم عنه وهم ساذج يقضي بالتعامل مع ثقافات متعددة وليس مع ثقافة واحدة لها جانبها الفكري والديني المهم[١٠].



إن خصائص حضارة بلاد الرافدين القديمة وطبيعة مدوناتها ومكوناتها الاجتماعية وسماتها السياسية تجعل من الصعوبة في الوقت الحاضر إفراد نص ديني ينم عن رسالة سماوية ثابتة الأركان. من هنا ينبغي أن تدرس عقيدتها الدينية بمنهج خاص بها ليتم الوصول إلى ما يستدل به. وهذا المنهج الذي وضع لبحثنا هنا يقوم على ثلاث قواعد، هي: تحديد السمة الدينية لهذه الحضارة، ورصد العناصر المشتركة في ديانتها مع عقيدتنا الإسلامية، وعرض نصوص تتضمن ما يدل على وجود رسلٍ أو تعاليم تتسم بها الرسالات السماوية.

السمة الدينية لحضارة بلاد الرافدين القديمة

إننا إذا أردنا أن نعرِّف حضارة بلاد الرافدين القديمة بإيجاز نستطيع أن نحدد أركانها بخمس كلمات ترمز إلى أركان تلك الحضارة وأولوياتها، وتعبر عن روحها. هذه الكلمات هي، العدالة، والبناء، والمعرفة، والري، والحرب. وهذه الأركان تفصح عنها نتاجات هذه الحضارة وما وصلنا من شواهدها. وتدل هي بدورها على حيوية الحضارة نفسها والقدرة على الإنجاز فيها مما يتكشف يوماً بعد يوم مع كل اكتشاف أثري، ومع كل سطر يقرأ من تراثها المدون.

وهذه الأركان الخمسة للحضارة تنضوي جميعها تحت مظلة الدين والمعتقدات الدينية التي لم تغب يوماً عن نشاط أو إنجاز حضاري(١١).

لقد عرفت أسماء المئات من المعبودات في حضارة بلاد الرافدين القديمة، وكان أكبر عدد منها قد عرف في الألف الثالث قبل الميلاد. غير أن هذه المعبودات أو الآلهة في اعتقاد القدماء لم تكن في أي حين على الدرجة نفسها من الأهمية أو المكانة. فقد كانت درجاتها مختلفة وعلى رأسها إله رئيسي يفوقها في كل شيء(١٢).

وطوال عصور الحضارة القديمة كان هناك سعي مستمر إلى تقليص عدد هذه الآلهة بدمجها مع بعضها حين تتشابه المسؤوليات أو الصفات المنسوبة لها، أو بإلغاء عبادة بعضها. وبسبب تكرار هذه العملية تقلص عددها كثيراً مما جعل المختصين يتلمسون ميولاً واضحة للتوجه نحو التوحيد(١٣).

أو ما أطلقوا عليه Monotheistic tendencies. غير أننا لا نزال نفتقر إلى دراسات تحاول أن تلقي ضوءاً على من كان يغذي هذه الميول لدى السكان القدماء. كما أن الدراسات السابقة أغفلت إلى حدٍ ما تحديد ماهية ما دأبت الأدبيات الغربية على تسميتهم بالآلهة. فقد جرى تحديد هذه الآلهة بدلالة وجود العلامة الدالة دِنجِر dingir قبل اسم كل منها. لكن هذه العلامة ترد قبل كل اسم يعود إلى كائن أثيري، مثل الملائكة، والشياطين، والجن، والأرواح، وحتى بعض المكونات المادية مثل الأنهار وبعض الجبال. وهذا يحتم مراجعة مفهومنا لمصطلح الآلهة في الحضارة القديمة. ويتضح من بعض النصوص المسمارية أن السكان القدماء نظروا إلى بعض الجبال على أنها مباركة بما تنتجه. ولعل نظرتهم إلى الأنهار كانت باعتبارها مصدراً للماء هي موضع نعمة أسبغت على البشر، وإذا كانت هذه العلامة الدالة قد وضعت قبل أسماء بعض الملوك القدماء -الذين لا يزيد عددهم على خمسة- فهي لا تعني أنهم عُدُّوا في مصاف الآلهة وإنما أضفيت على شخصياتهم مسحة من الطهارة أو المباركة الدينية.

عناصر متميزة في المعتقدات الدينية

عرفت حضارة بلاد الرافدين القديمة معتقدات دينية متميزة باقترابها من العقيدة الإسلامية الحنيفة. واكتشافنا لهذه المعتقدات يثير التفكير في كيفية توصل

السكان القدماء لمعرفتها. وطالما كنا نؤمن بتواتر الرسل وأن عدداً منهم لا بد أن يكونوا عاشوا في عصور هذه الحضارة فمن المعقول الذهاب إلى أن من الرسل أو الدعاة قدموا للأقدمين ما عَرَّفهم بمعتقدات صحيحة في فجر ميلاد الفكر الديني. من هذه المعتقدات التي عرفتها حضارة بلاد الرافدين القديمة أن الحياة ابتدأت من خضم كتلة المياه الأولى، أو البحر الأول(١٤).

ومن المعتقدات الأخرى أن الإنسان كائن مركب من عنصرين أولهما حسي مادي وهو الجسد، والثاني غير مرئي وهو الروح. وكان اعتقادهم عن الروح أنها حين تنفصل عن الجسد تكون مستقلة عنه، وهي الحالة التي تحدث حين موت الإنسان، وكان يتوجب دفن الأموات حيث تبلى أجسادهم وتنتقل أرواحهم إلى عالمها الآخر(١٥). ومن الناحية اللغوية وجد ما ينم عن المعتقد الديني القديم عن وظيفة المعبد إذ كان يسمى باللغة الأكدية (بيت) المطابقة للكلمة العربية، وقد عّده السكّان القدماء بيتاً للإله(١٦).

وعلى الرغم من عدم نضج عقيدة التوحيد في الحضارة القديمة كانت هناك ميول واضحة للخروج من حالة الشرك. فقد عرفت هذه الحضارة ما يسمى بمبدأ (التفريد) الذي يعظَّم بموجبه إله واحد ولكن دون أن تنبذ عبادة الآلهة الأخرى(١٧).

وقد برز هذا المبدأ بوضوح في عبادة مردوخ منذ العصر البابلي الوسيط في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. وبهذا الصدد ازدادت الإشارات في النصوص المسمارية إلى وجود إله له المكانة الأولى والقدرة الأعظم من بين سائر المعبودات التي أخذت تتبع الإله الأعظم مكانة ومقدرة وتنفذ أوامره.

وتتطابق صفات هذا الإله ويتوحد دوره مهما كان الاسم الذي عرف به -على اختلاف العصور- سواء كان أنليل، مردوخ، آشور أم سين.والسؤال الذي يمكن

أن يطرح هنا هو ألم يكن هذا الضيق بمبدأ الشرك والميل إلى التوحيد بهدي دعوات مرسلين نؤمن في عقيدتنا بأنهم تواتروا على الأقوام القديمة وخاطبوها بألسنتها؟ وقد يثير البحث تساؤلاً عن مدى فهم النصوص القديمة -لاسيما وأنه أتانا أساساً من شرح العلماء الغربيين لها- فيما يخص تدرج المعبودات القديمة وتمييز ما عبد منها وما أعطي مكانة الملائكة أو الكائنات الأثيرية الأخرى. إن أهمية حضارة بلاد الرافدين القديمة وامتداد عصورها لمدى زمني يتجاوز ثلاثة آلاف عام يحتم على المختصين التعمق في دراستها والبدء بإعادة تحليل نصوصها ذات الصلة بالمعتقدات الدينية للوصول إلى تفسير جديد لا يكون بالضرورة مطابقاً لتفسير العلماء الغربيين لها.

ومن أولى النصوص الجديرة بإعادة الدراسة نص قصة الخليقة البابلية الذي عرف عند الأقدمين بالعنوان الأكدي (أينما أيلِش) الذي يعني في العربية (حينما في العلى). ومما يشجع على إعادة دراسة هذا النص صدور أحدث الترجمات لنصه المسماري باللغة العربية(١٨). هذا النص عبارة عن قصيدة شعرية تتضمن ١٠٩٢ بيتاً باللغة الأكدية كتبت على سبعة ألواح، وقد وجد بعدة نسخ عثر على أجزاء منها في مواقع نينوى، آشور، كيش والوركاء في العراق وموقع سلطان تبه في تركيا.

وعلى الرغم من أن تاريخ تدوين هذه النسخ لا يتعدى بداية الألف الأول قبل الميلاد فإن هناك أدلة واضحة على أن التدوين الأصلي للنص يعود إلى تاريخ أقدم. وإذا كان لا يهمنا - في هذا البحث- السياق الأسطوري الذي يتضمنه النص فإننا نلفت الانتباه إلى إشارات تنم عن وجود معتقدات قد لا تكون وصلت إلى الأقدمين إلا من خلال رسالات تفوق المعتقدات المقترنة بالديانات القديمة، ومن هذه المعتقدات نذكر ظهور الحياة الأولى من الماء (اللوح الأول)، خلق السماوات

بطبقات يعلوهن سقف (اللوح الرابع) ووضعت فيها أبراج الكواكب والمحطات السماوية والقمر الذي حدد مساره مع رسم حدود الليل والنهار (اللوح الخامس). إنها معرفة تتجاوز حدود ممارسات كهنة ديانة مشركة قديمة، وتحتاج إلى هدي علوي بلغنا نحن من خلال عقيدتنا الإسلامية الحنيفة وتجلى في فكر أمير المؤمنين عليه السلام إذ يصف خلق السموات بقوله: **((تَرُدُّ أوله إلى آخرِه، وساجيه إلى مائرِه، حتى عب عبابَهُ، ورمى بالزَّبدِ ركامهُ، فرفعه في هواءٍ منفتقٍ، وجو منفهقٍ فسوى منه سبع سماواتٍ، جعل سفلاهنَّ موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً وسَمْكاً مرفوعاً بغير عَمَدٍ يدعمها، ولا دسارٍ ينظمها. ثم زيّنها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمراً منيراً، في فلكٍ دائرٍ، وسقف سائرٍ، ورقيم مائرٍ))**[١٩].

تنتهي قصة الخليقة البابلية باعتلاء مردوخ للعرش وركوع جميع الكائنات العليا له[٢٠]. وفي اللوحين الأخيرين (السادس والسابع) من قصة الخليقة البابلية تورد الأسماء الخمسون التي أطلقت على مردوخ لبيان تفرده ومقدراته. وهذه الأسماء مصاغة باللغة السومرية وليست باللغة الأكدية التي كتب بها النص، لكنها مشروحة باللغة الأكدية.

نصوص متميزة

هناك نصوص مسمارية من حضارة بلاد الرافدين القديمة، مدونة باللغة الأكدية من عصور مختلفة من تاريخ هذه الحضارات، تنطق بمفاهيم ومنطق مما لا يتوقعه المرء في ظل معتقدات دينية قديمة تتسق وأهواء قوم مشركين وحكام مستبدين امتلكوا سلطات غاشمة وفرضوا ما رغبوا به على رعيتهم. ومن هذه



النصوص ما يروي قصص أنبياء ورسل عرفناها بهدي كتاب الله الكريم، وتدل هذه النصوص على أنهم عاشوا على أرض بلاد الرافدين وسجلت نصوص حضارتها قصصهم بقدر ما استوعبتها عقول الناس حينذاك أو بحسب ما رويت لهم. ونورد هنا من هذه النصوص:

أولاً: شريعة حمورابي

جاءت شريعة حمورابي بقوانين متكاملة عالجت شؤون الحياة المختلفة لحماية الحقوق ونشر العدالة. وقد تضمنت المواد القانونية الأخيرة، من مجموعة المواد الـ ٢٨٢، الأجور المحددة للعمال بحسب حرفهم ومبالغ استئجار الحيوانات والأدوات وغيرها.

ومن الملفت أن حمورابي ضمن مقدمة شريعته وخاتمتها عبارات تبين الغاية من هذه الشريعة التي نقشها على عدة مسلات من الحجر نصبت في أماكن مفتوحة في عدة مدن ليتسنى للناس قراءتها ومعرفة حقوقهم[٢١]. ومن هذه العبارات نورد ما يأتي:

- «لإظهار العدالة في البلاد، لمحو الشر والخبث، من أجل أن لا يضطهد القوي الضعيف، للطلوع كالشمس على سود الرؤوس وتنوير البلاد». (العمود الأول، الأسطر: ٣٢- ٤٤).
- «أحكام العدالة التي وضعها حمورابي، الملك المقتدر، وجعل البلاد تمسك العرف المكين والريادة الجيدة». (العمود السابع والأربعون، الأسطر ١-٨).
- «بالحكمة التي قررها لي أيا، بالمقدرة التي أعطاني إياها مردوخ، نسخت الأعادي، طيبت جسد البلاد، وطنت أهل الحواضر في المرابع الخضر، لم أدع

غاشماً يتسلط عليهم... أنا الراعي المسَلَّم ذو الصولجان العدل، ظلّي الطيب وارف على مدينتي. حفظت بحضني سكان سومر وأكد فانتعشوا بحماية الملائكة الحارسة، عنيت بهم في السلم وبإدراكي العميق حميتهم، من أجل أن لا يقهر قوي ضعيفاً وأن ينصف اليتيم والأرملة» (العمود السابع والأربعون، الأسطر ٢٦-٦٢).

- «المظلوم، صاحب القضية، ليذكر إلى الأبد اسمي، ليذهب أمام مجسمي (ملك العدالة) وليقرأ مسلتي المسطرة، وليسمع كلماتي الوقورة، ولتفهمه مسلتي الدعوة ليرى قضيته وليرتاح لبُّه». (العمود الثامن والأربعون، الأسطر ١-١٩).

ثانياً: قصة سيدنا نوح والطوفان في ملحمة جلجامش

اشتهرت قصة الطوفان التي وردت في اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش، ويرد فيها اسم سيدنا نوح بالصيغة الأكدية (أوتا- نيشةِ). ومع وجود اختلاف في بعض التفاصيل فإن مضمون النص الأكدي يتحدث عن قصة سيدنا نوح عليه السلام بشكل واضح خصوصاً معاملة الناس له والوحي الذي بلغه من وراء جدار القصب. ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢٢].

وكذلك بناء الفلك وأخذ ذرية الأحياء ثم وصف الطوفان واستمراره لستة أيام وسبع ليالٍ، وهلاك القوم الظالمين وانحسار المياه بعدئذٍ. ومن الجدير بالذكر أن النص الأكدي يحدد موطن أوتا- نيشةٍ في مدينة شروباك (تل فاره في منطقة الرفاعي على مجرى الفرات القديم).



ثالثاً: قصة سيدنا أيوب

وردت قصة سيدنا أيوب في نص مسماري أكدي يعود تاريخه إلى العصر البابلي الوسيط في نحو القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد. وقد عثر على كسر هذا النص التي تعود إلى سبع وعشرين نسخة وجدت في مواقع مدن قديمة مختلفة من بينها بابل، سپار، نينوى، أور وخوزيرينا (سلطان تبه حالياً في تركيا). يرد اسم المؤمن المبتلى في هذا النص بالصيغة الأكدية شُبشِ- ميشري- سُموقان، ويفهم من النص أن موطنه كان في مدينة بابل. وقد نظم شعراً على أربعة ألواح طينية، ويصل عدد أبياته إلى نحو خمسمائة سطر(٢٣).

رابعاً: نص نصائح إلى الحكام

في منتصف القرن التاسع عشر عثر على نص مدون باللغة الأكدية في تل قوينجق في نينوى. كتب هذا النص على لوح طيني ويتألف من خمسة وخمسين سطراً، أما مضمونه فتحذير إلى الحكام من أن يظلموا شعوبهم وهذا ما يجعل منه نصاً فريداً من نوعه. ويتساءل المرء عن كاتب هذا النص الذي لا يمكن أن يكون تابعاً لحاكم أو ملك كما لا يمكن أن يكون شخصاً عادياً. يرد في هذا النص الذي نشرت ترجمته العربية الكاملة(٢٤): «ملكٌ لم يصغِ للحق؟ يصبح ناسه في فوضى وتتحول بلاده إلى صحراء. لم يصغِ لشرع بلاده؟ سيحول أيا، ملك المصائر، مصيره ويورده دوماً مورد الغريب.

لم يصغِ لأمرائه؟ ستقصر أيامه.

لم يصغِ للمتخصصين؟ تجابهه بلاده؟

أصغى لسخيف؟ سيضمحل فكر بلاده.

دحض حجة ابن مدينة سپار وقضى لغريب؟ سيحل شمش، قاضي السماوات والأرض، قضاءً أجنبياً في بلاده وسوف لن يصغي أميرٌ أو قاض لقضية فيها.

جلب له أبناء نفر قضية للحكم فيها لكنه ارتشى وجار عليهم؟

يحشد عليه أنليل، سيد البلدان، عدواً أجنبياً ويسقط جنده، وسيُشَد وثاق الأمير وعضو الحاشية ويصبحان كالمتشردين في السوق.

سمع قضية للبابليين وجعلها صغيرة عن الاهتمام؟

يسلط مردوخ عليه خصمه

ويهب أملاكه وثروته إلى عدوه.

فرض عقوبة على أبناء مدن نفر، سپار وبابل؟

وجعلهم محتجزين في السجن؟

حيثما فرضت العقوبة تحال المدينة إلى كدس ركام،

ويستولي على السجن، حيث هم محتجزون، عدوٌ أجنبي.

ساق أهالي مدن سپار، نفر وبابل جميعاً إلى الجيش؟

وألزم ذلك الجيش بعمل السخرة؟

وفرض عليهم الخدمة عند صياح المنادي؟

يحول مردوخ بلاده إلى عدوه،

ويحمل جنود بلاده سلال التراب لعدوه».

....

١. القرآن الكريم، سورة العلق.

٢. سورة الإسراء، الآية ٨٥.

٣. نهج البلاغة، شرح الإمام محمد عبده، (مؤسسة المظفر الثقافية، النجف الأشرف، ٢٠١٢م)، ص ٢٤٣.



٤. المصدر نفسه، ص٢٤٨.
٥. سورة إبراهيم، الآية ٤.
٦. سورة غافر، الآية ٧٨.
٧. سورة الأنعام، الآيات ٧٥-٨٠.
٨. جان بوتيرو، بلاد الرافدين: الكتابة – العقل – الآلهة، (بغداد، ١٩٩٠م)، ترجمة البير أبونا، ص١٣ وما بعدها.
٩. المرجع نفسه، ص٢٣.
١٠. المرجع نفسه، ص١٢: هـ١.
١١. نائل حنون، شريعة حمورابي: ترجمة النص المسماري مع الشروحات اللغوية والتاريخية ج١، (دمشق، ٢٠٠٥م)، ص١٣.
١٢. صموئيل نوح كريمر، السومريون: تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، (الكويت، ب.ت)، ترجمة فيصل الوائلي، ص ص ١٥١-١٥٢.
١٣. A.Green, et al.,"Gods, Goddesses", Dictionary of the Ancient Near East, eds. P. Bienkowski and A. Millard, (London, 2000), p. 131.
١٤. نائل حنون، الحياة والموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة، (دمشق، ٢٠٠٥م)، ص٣٦.
١٥. نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، ط٢، بغداد، ١٩٨٦ص١٠٧ وما بعدها.
١٦. Jeremy Black, et al. (eds.), A Concise Dictionary of Akkadian, (Wiesbaden, 1999), p. 46.
١٧. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج١، (بغداد، ١٩٧٣م)، ص٣٣٢.
١٨. نائل حنون، حينما في العلى: قصة الخليقة البابلية، (دمشق، ٢٠٠٦م).
١٩. نهج البلاغة، ص ٢٦-٢٧.
٢٠. اللوح الخامس، الأسطر: ٧٧-٨٨.
٢١. نائل حنون، شريعة حمورابي: ترجمة النص المسماري مع الشروحات اللغوية والتاريخية، خمسة أجزاء، (دمشق، ٢٠٠٥م).
٢٢. سورة الشورى، الآية ٥١.
٢٣. نائل حنون، نصوص مسمارية تاريخية وأدبية، (كتاب تحت الطبع).
٢٤. نائل حنون، حقيقة السومريين ودراسات أخرى في علم الآثار والنصوص المسمارية، (دمشق، ٢٠٠٧م)، ص ص ١٢٨- ١٣٤.